

الحدائفة الغربية في فكر عبد الوهاب المسيري

مداخلة الدكتور عز الدين معميش

أستاذ محاضر بكلية العلوم الإسلامية- جامعة الجزائر

تبعاً لسلسلة الندوات التي دأب على تنظيمها المركز الثقافي الإسلامي بالجزائر العاصمة، التأم شمل ثلة من أساتذة جامعة الجزائر حول موضوع حيوي وشيق له امتداداته وآثاره العميقة على حياتنا العربية المعاصرة، والموسوم بـ: "الحدائفة الغربية في فكر عبد الوهاب المسيري" تناول الأستاذ الدكتور "محمد الأمين بلغيث" الجانب التاريخي للموضوع، ودرس الدكتور "عبد الحليم بيوشي" مصادر فكر المسيري، وركز الدكتور "عزالدين معميش" على كشف حقيقة الحدائفة الغربية، ومقاربة المسيري لهذه الحدائفة في تجلياتها المختلفة.

وفي هذه الورقة عرض تفصيلي لما جاء في مداخلة الدكتور "عزالدين معميش".

مقدمة:

الحدائفة مذهب فكري واسع الانتشار، تجاوز النظرة التقليدية التي كانت قائمة على الحقب الزمنية، تبدى وظهر كمنظومة قوية من المشاعر والأفكار ابتداء من النصف الأول من القرن العشرين، ولعب دوراً حاسماً في تحديد مسار التطور الاجتماعي والثقافي والسياسي في الغرب، واستطاع أن يضمن الشروط الموضوعية لهذا المسار.

ولذلك أصبح يُفرّق بين الحدائفة كتيار فكري عالمي، وبين الحدائفة كتحيب زمني جاء مباشرة بعد نكسة الكنيسة ورجال الدين أمام الحركة العلمية القوية التي قادها عدد من الوضعيين الغربيين، ككوبرنيكس... فهي حالة تاريخية من جهة، وتيار فكري واسع يحمل مضامين عميقة وقيم جديدة للإنسان والكون والحياة، وما لبث أن توسّع وتمدّد ليشمل تيارات جديدة أكثر حدّة وجرأة في طرح أفكار تجاوزت الإنسان ذاته كمركز للوجود، يعبر الفيلسوف ماكس فيبر عن ذلك بقوله: (إن قدر حقبة أكلت من شجرة المعرفة هو

الاعتراف بأن مواقفنا من الحياة والكون ليست أبداً نتاج تعاضل معرفتنا التجريبية، وإن أرفع المثل العليا الأشد تحريكاً لنا، إنما تتشكّل فقط في الصراع مع مثل أخرى مختلفة، هي مقدّسة عند الآخرين، تماماً كما هي مثلنا بالنسبة إلينا).

ويمكن أن نعتبر مشروع الدكتور المسيري في بناء رؤية معرفية متوازنة وشاملة تأخذ بعين الاعتبار، الإنسان والطبيعة والدين، كمراكز لا يمكن تجاوزها، قائماً (أي: هذا المشروع) على اختراق مشاريع الحدائة الغربية في تجلياتها المختلفة، وخاصة النموذج الأمريكي منه، وهو رغبة لمستها أثناء قراءتي لكتاب الدكتور المسيري "الحدائة وما بعد الحدائة" حواراً مع الدكتور فتحي التريكي، حيث أكد على هذا الأمر، من خلال طرحه سؤالاً على دريدا عند زيارته مصر سنة 2001: كيف يمكن الجمع بين الاتجاه الهيوماني (الإنساني) والنزعة السائلة المائعة التي تطبع المشروع الحدائى؟

وهنا لا يسعني إلا أن أؤكد أن مشروع الدكتور المسيري في نقد الحدائة وما بعد الحدائة من أكثر النماذج المعرفية عمقاً ومصداقية على الصعيد العالمي وليس العربي وحسب، لا يضاهيه في هذا المجال سوى مشروع إدوارد سعيد في قراءة الاستشراق والنموذج الامبريالي في كتابيه: "الاستشراق" و"الامبريالية والثقافة" رغم أن مشروع الدكتور المسيري لم يحظ بالدعم الإعلامي المطلوب من الهيئات المحلية والدولية، فلم يترجم أي من كتبه الصادرة في هذا الموضوع إلى أي لغة أخرى، بعكس كتابي "إدوارد سعيد"، ورغم ذلك فقد سجّلنا القدرة النقدية الكبيرة للمسيري في تبسيط النماذج الفلسفية والأدبية والمعرفية الغربية، وفضح استراتيجياتها وأهدافها وفك ارتباطاتها وتشابكاتها.

يقول أحد الباحثين المهتمين بالحدائة في البيئة العربية: (تتمثل الصورة التي يعاين القارئ من خلالها جهد المسيري اليوم في هيئة رؤية نظرية نقدية للحضارة الغربية تنطلق من تأملات حول الإنسان، والمركز، والمعيار الأخلاقي، ومعايير المادة، وإمكانية التجربة المتجاوزة، وطبيعة المنظومات التفسيرية، وعلاقات العلم والمعرفة والقيمة، وقد يكون من اللافت حقاً: أن البلورة التي أنجزها المسيري لهذه الأفكار طوال ثلاثين عاماً أو يزيد، قد جاءت في إثر تحول

دراماتيكي من النقيض إلى النقيض تماماً، أو مما يسميه هو نفسه بـ"الانهار" بالحضارة الغربية إلى الرؤية النقدية الشاملة والجذرية كما تتضح في كتاباته).

ولعني هنا أحرص على افتتان ما بعد الحداثة بالحداثة كما ورد في كتابات المسيري، فالتأسيس لقيم ما بعد الحداثة بتياراتها المختلفة لم ينهض إلا عبر مشروع الحداثة الذي أعلن منذ البداية سقوط الحضارة الغربية ومنظومتها وضرورة تقويض مركزيتها وميتافيزيقيتها، وعليه فلا إشكال إطلاقاً في فضح منظومة ما بعد الحداثة عبر مدخل الحداثة، فما بعد الحداثة مرحلة زمنية معينة حملت معها قيماً وتصورات جديدة لشتى الميادين العلمية والسياسية والحياتية، تجاوزت الحداثة كتصور ومفهوم ومنظومة ميتافيزيقية، وقام على أنقاض الظاهراتية والبنوية وغيرها.

أولاً- المفاهيم المشكلة للحداثة الغربية في نظر المسيري:

ولعل أهم المفاهيم التي يبسطها المسيري من دراسته ومعايشته العميقة للحداثة الغربية، ما يلي:

1- **الطبيعة المتحركة:** ويقصد بهذا المفهوم أن الطبيعة نظام يتحرك، بلا هدف أو غاية، نظام واحد مغلق مكثف بذاته، يتجاوز مركزية الإنسان، وترتد إليه كل الظواهر مهما بلغ تنوعها، وهذا المبدأ كامن في الطبيعة ذاتها، لذلك فالواحدية هي الأصل في هذا العالم.

ولاشك أن هذا الطرح أو المفهوم، هو وحدة وجود متطرفة، إلا أنه عدل عن الكمونية الروحية، حيث الإله يحل في مخلوقاته ويمتزج بها، ثم يتوحد معها ويدوب فيها تماماً، بحيث لا يصير له وجود دونها ولا يصير لها وجود دونه، فهو إله اسما ولكنه هو "الطبيعة / المادة" فعلاً. وتطورت الصياغة مع الهيلينيين الجدد، فتحدثوا عن "الروح المطلق" وعن "روح التاريخ"، وكل ما يعنيه ذلك أن الإله في وحدة الوجود الروحية يتدخل في الطبيعة ويكمن فيها وفق عناصر محسوسة.

فعدل الطرح الحدائي إلى وحدة الوجود المادية (الحلولية الكمونية المادية)، حيث يتم فيها الاستغناء تماماً عن أية لغة روحية أو مثالية، ويخضع

الوجود للمبءأ الواحد، ألا وهو "قوانفن الطفبعة"، أو "القوانفن العلمفة"، أو "قوانفن الحركة"، وهو قانون شامل فمكن تففسفر كل الظواهر - ومن بفنفا الظاهرة الإنسانفة- من خلاله. وبفبءو لأول وهلة تقاطع هذا الطرء مع مسلمات الماركسفة، لكن المسفرى فرف ذلك بكون الماركسفة ثلاثفة الأضلاع وبعبءة عن عبقة الوحءة. ولكن بالمقابل فمكن اعءبارها قرفبة من الطروءاء الءاروفنفة، ففء لا تفرفة بفن الإنسان و الطفبعة، فهما مادة واحدة نسبفة لا قءاسة لها، خاضعة للمقاففس الكمفة والطفراف الرفاضفة.

ومن ثم فعلى الإنسان أن ففخلق بأخلاق الطفبعة، فلا رحمة، ولا مءشاركة، ولا ثباء، قال هءلر: "فبب أن نكون مءل الطفبعة، والطفبعة لا تعرف الرحمة أو الشفقة". كما أنه فنفقف الجواهر الإنسانف (الحفاة، الضمفر، الروح)، وبفكون بءله مموعة عملفاء كفمفائفة، ففم ففها التلاعب بالجزئفاء، وففءول الإنسان إلى "ففوان كامل خاضع لقوانفن التطور والطفبعة"، فلا ففءار ولا فقرر، فكل شفة قء تم افءفاره وقرفره له، وهو لا فحمل أفة أعباء أخلاقفة، بل ففءرف بشكل آلف حسب طفبعءه، وطفبعءه لا ففر ففها ولا شر ولا أسئلة كبرى.

2- الفرءفة: ومن المفاهفم المؤسسة لقمف الءءاءة، مفهوم الفرءفة، والفف ففنى الحرفة المطلقة فف التعبفر عن الءاءة فف شءى مءالاء الحفاة، بففء ببءعء عن الأنماط وءالقالف والمحاكاة والروابط الاءءماعفة والأخلاقفة.

وئضءمء الفرءفة فف القرن العشرفن نفءفة الفلسفاء الطاغفة للحركاء الاءءماعفة بعء الحرب العالمفة الثانية، ثم ءعاظمء مع ءءشكلاء الءءاءفة، وبمكن اعءبار كتاب الأمرفكف "جونائان رابان": (المءفنة الناعمة) المنشور عام 1974 ءأرفخا ففبءا لءءاءة ففءفة قامء على نوع ففءف مشكل للمءفنة قائم من ففل فرفء من الموظففن وأصحاب المهن، حفاءهم ففر مسءقرة ومءففرة باسءمرار، فطبءء حفاءهم المءفنة طابعا فعبر عن مضمونها فف ءفففر وءءبءل وءطموء اللامءءوء والسطفحفة والشفاففة، وانعكس ذلك على نوع المعمار وءلباس والأكل وكل شفة فف نمط الحفاة: "قءء فءءة الهوفة الشءصفة ناعمة مائعة ومفءوءة ءائما على ممارسة الإراءة والففبال، سواء كان الأمر للأفضل أم للأسوأ، ففان المءفنة ءءعوك باءءاه إعاءة

تشكيلها كيفما تستطيع العيش فيها، يكفي أن تقرّر أنت كيفما تكون، وستجد أن المدينة التي تريدها هي بجانبك، قرّر ما شكل المدينة الذي تريده وستجد أن هويتك قد تماهت فيها".

ويطلق المسييري على هذه الفردية المتضخمة: "الزرعة الجينية" الراغبة في فقدان الذات والوجود والمتمزجة بصفات الكائنات الطبيعية ذات التوجه البهيمي.

صحيح ما يقال عن ضرورة تلك العلاقة الخاصة بين الإنسان وموضوعاته التي ما انفكت تتجدد في طور الحداثة، حيث الأوهام الناعمة والأساطير المؤسسة لليوتوبيا التكنولوجية، والمطامح المتزججة، إلا أن الإنسان تاه وسط هذا الركام، وأصبح نتاج علاقات اجتماعية جد سريعة ومتغيرة، بحيث ضل كثير من الناس طريقهم، مما نتج عنه انعكاسات كارثية على الإنسان والوجود، تجسدت في شعور مستمر بالقلق والتوتر العميقين، وخوف أبدي من انحلال عرى الحياة الاجتماعية إلى فوضى لا حد لها، وأحداث القتل الغامضة وفصول العنف الدموي المجاني، وبذلك تحوّل هذا النمط من الحياة إلى ملهاة تراجيدية يتحكّم فيها المجانين والأوغاد. وما ولادة "تيار الحنين" في الغرب، والذي يرغب بشدة في العودة إلى طبيعة الإنسان الأصلية، ما يسميه المسييري ب: "الإنسان الإنسان"، إلا مظهر من مظاهر خواء الحداثة.

3- السيولة والانفصال عن القيمة: يرجع المسييري مفهوم الانفصال عن القيمة إلى ما يسمى ب (أخلاق الصيرورة)، حيث انبناء الواقع على العلم والتكنولوجيا والعقل كآليات وحيدة، مع تجاهل البعد الإنساني والمعرفي (الكلي والنهائي)، ولذلك فالأخلاق ليست مجموعة من المبادئ المتجاوزة لرغبات الفرد ومصالحته الشخصية، والتي يلتزم بها الإنسان، وإنما هي مجموعة من الإجراءات التي يتفق عليها أعضاء مجتمع ما .

ويعتبر المسييري المفهوم غريبا يحتوي داخله على تناقض جوهري، يشبه قولنا "جوع الشبع" أو "عطش الارتواء"، فالأخلاق تتسم بحد أدنى من الثبات والانفصال عن الواقع اليومي، على عكس أخلاق الصيرورة التي تعني في نهاية الأمر التسليم بما هو قائم والرضوخ له، والقدرة على تعديل القيم بعد إشعار قصير للغاية، والتغيّر السريع ومعايشة بيئة كل ما فيها يتغيّر.

وطبقا لكل ما سبق ولد مصطلح "السهولة"، والذي فعنى سقوط الإنسان فف المفعوة وقابلفة التشكل وفق جمفع المتطلبات، فاستحق أن فكون إنسانا سائلا فف مقابل الإنسان الصلب المقاوم لرغباته ونزواته والحرفص على مبادئه، إلى أن فصل إلى لحظة التحقق النمادجفة، ففن فصففر مع أشباهه مجتمعا نسقا آلفا نمطفا خاضعا للحسابات الكمفة، فشبها المسفرى بعالم "كافكا وبكف" ففث ففء الأفراد أنفسهم داخل مئاهة من الأوامر الفف فأفهم من مصادر مجهولة لا فعرفونها، ففردد صءاها داخل ققص فففف لا إنسانف، وهذه المصادر لا تؤمن إلا بنمءة هؤلاء المسافف وفق الفرففء المادف البء.

4- الففوففا الفكنولوجفة: هذا المفهوم هو حالة مثالفة فرفء فلسفة الحدائفة فكرفسها عبء إخضاع الإنسان تماما لمنطق الآلة الذي لا فعرف الفوقف، وفعفسء فف صورة "السوق/المصنع" ففث الفعالفم المادفة الصارمة، وأهمها:

أ- السوق/المصنع لا انقطاع ففه ولا فراغات، فهو فمءد لفشمل الوطن بأسره، وهاهو قد امءد لفشمل العالم.

ب- السوق/المصنع شفاء منظم مفسق مع نفسه، خاضع لقوانفن فابفة منظمفة مطرءة واضعة بسفطة رفاضفة ففمفة وآلفة.

ف- السوق/المصنع لا ففكرفء بالفرفء ولا بالإنسان، ولا بالفصوصفاء ولا بالفائفاء أو الففم الإنسانية، فهو ففءاوز الإنسان ولا ففءاوزه الإنسان.

ء- السوق/المصنع ففءركك بشكل تلقائف آلف حسب قوانفن العرفض والطلب الآلفة الرفاضفة الصارمة الكامنة فف السوق فافه.

ج- السوق/المصنع ففوف داخله قوانفنه وكل ما فءءاءه لفهمه، وهو واجب الوجود فف النظم الرأسمالفة والنظم الاشتراكفة على فء سواء.

5- الفمركز حول الأنثف: والفقصوء به خضوع الفرفء للففمففاء الفرفزفة، لففءول هدفه السامف إلى إشباع شهواته الفنسفة، لأنه لا ففشر بوجوده الفافف إلا فف فلك الأنثف، والعكس صففف.

6-اللحظة النازية: رغم العقلانية التي تدّعيها الحداثة، إلا أنه شاع في الآونة الأخيرة بعض المصطلحات المصادمة للعقلانية، ومن أهمها مصطلح "نهاية التاريخ"، والذي هو في حقيقته العميقة تكريس لمبادئ الجدل الديالكتيكي الهيغلي، على أن يستقر في النهاية على النموذج الرأسمالي الغربي.

فالتاريخ بكل ما يحويه من تركيب وبساطة، وضرورة وثبات، وشوق وإحباط، ونبل وخساسة، سيصل إلى نهايته في لحظة ما، فيصبح سكونياً تماماً، خالياً من التدافع والصراعات والشائيات والخصوصيات، ويرد كل شيء إلى مبدأ عام واحد، طبيعي مادي، يفسّر كل شيء، لا فرق بين الطبيعي والإنساني.

وقد أطلق المسيري على هذا التصور، مصطلح "اللحظة النازية" لالتقائه مع المشروع النازي في التطهير والسمو والنزعة الآرية الداعية لاستئصال العرقيات الأخرى، ليتوقف التاريخ والطبيعة على الجنس الآري.

ثانياً: إستراتيجية المسيري في نقد الحداثة الغربية:

يدعو المسيري إلى ضرورة مواجهة المشروع الحداثي الغربي في تجلياته غير الإنسانية، وأول ما يقترحه في هذا المجال بلورة واضحة لمفهوم "الإنسان الإنسان" في مقابل "الإنسان الطبيعي"، و"الإنسان الإنسان" عند المسيري هو الرباني الذي ينفصل عن قوانين المادة، ويرى في الكون مناحٍ ريبانية متجاوزة لقوانين الحركة التي تسري على الإنسان والحيوان، فهو الإنسان الحق عكس الطبيعي الذي يمتزج بسهولة مع الكائنات الطبيعية ويتّصف بصفاتهما، كما أنه لا يذعن لحدود المادة، فهو يعيش في إطار الطبيعة داخل المرجعية الكامنة فيها، ولكن لا يُرد في كليته إليها، ولا يمكن تفسيره في كليته من خلال مقولات مادية بحتة، فتوجد مسافة بينه وبين الطبيعة.

والمسيري بهذه الدعوة يفضح الاستتارة الغربية، ويصفها بالاستتارة المظلمة التي تفكّك الإنسان ولا تجعل له أية مركزية أو مكانة خاصة أو مزية على الكائنات الأخرى.

ويمكن القول أن استراتيجية المسيري في نقد الحدائفة الغربية تجسدت في هذه النقاط، ويكفي سردها لأن كل واحدة منها تحتاج إلى محاضرة منفصلة، وأهمها:

1 - الاختراق المعرفي: بفهم النظريات الحدائفة من الداخل ونقدها في الصميم.

2 - نقد الذات: فلا نكتفي بإلقاء التبعة على مادية الحدائفة وتوحشها، وبالمقابل لانسعى إلى تأسيس تيار إنساني عقلائي، نمكن أن يكون "يسار إسلامي" قريب إلى الوسط، لا يكرس الشمولية، ويبرز الأحداث، ويواجه الكونية.

3 - الارتداد من فلسفة التاريخ إلى التاريخ.

4 - مواجهة تيار العدمية.

5 - تنقيح الحضارة: بتطهيرها من تسلط الفكر الصهيوني الذي ساهم في إذكاء الصراع الإيديولوجي الأهوج في العالم إلى حد التدمير الأعمى.

6 - تجاوز الاستشراق.

7 - تأسيس جديد للدراسات المقارنة: تبنى على فعالية الأدب ونشاط الفلسفة عبر عمليات تأويلية منطقية وواقعية.